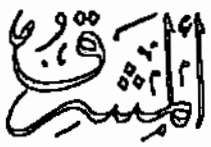

لمعة في اصل تاريخ المسكوكات

لحضرة الاب الفاضل المنوري بطرس شلي الدفوني

قال ارسطو في كتاب السياسة (ب ١ ف ٦): « انَّ الضرورة ارشدت المرء الى وضع النقود. وكان الناس في بادئ امرهم يتخذون في المبادلات مادَّة ما ذات قيمة اصطلحوا عليها فاستخدموها في لوازم عيشهم كالحديد والفضَّة وغيرهما ووضعوا لها قياساً ووزناً. ثمَّ بعد ذلك رسموا عليها علامةً تدلُّ على قيمتها وتغني صاحبها عن وزنها في كلّ حين » اه

(قلنا) ان الفيلسوف قد استوعب في هذه الاسطر الوجيزة تاريخ السكَّة والمسكوكات فبيَّن الاطوار التي مرَّ بها البشر قبل ان يتَّخذوا النقود المضروبة كما هي اليوم

١ الطور الاول . في مساومات البشر في بدء المجتمع ومصطلح نقودهم

انَّهُ لامرٌ طبيعي للانسان ان يُعطي ما بيدهِ ليقتني بهِ ما يملك غيرهُ كما نرى ذلك جارياً بين الشعوب في اوائل تاريخهم وقبل رسوخ قدمهم في المدنيَّة وهم اذ ذاك اشبه بالاولاد في تصوُّراتهم واعمالهم وتدرُّجهم الى العلوم والتمدُّن

قال احد فقهاء الرومان (١): « اصل الشراء والبيع المبادلة لانهُ لم يكن في الاعصر القديمة للدراهم وجود. بل كان كلُّ انسان يُعطي لسدّ حاجتهِ ما لا يحتاج اليهِ ويأخذ ما ينتفع منهُ لانَّ اشياء كثيرة كانت تتوفَّر عند الواحد ويعزُّ وجودها لدى غيرهِ »

الَّا انهُ اذا اراد ان يعطي شيئاً بدلاً ممَّا تتوق اليهِ نفسهُ يبدأ بتخمين اي ثمن

(١) راجع الفقه القديم Julius Paulus: *Pandectes*, XVIII, 1

مالهِ ومال غيرهِ ليعرف قيمة كليهما فلا تكون صفقتهُ خاسرة. ولا بُدَّ لهذا التثمين من قاعدة ثابتة او قياس اصطلاحي مقرَّر يرجع القوم اليهِ في كلّ آن. ويُقتضى ان يكون هذا القياس بسيطاً لا يتجاوز ادراك العامَّة ليصيب لديهم قبولًا ويكون التخمين على طرُق مختلفة كالعدد والقياس والوزن. وهذه القياسات تجد اكثرها في الهيكل البشري في القامة والذراع والاصبع والقدم والخطوة الخ

ولطالما حاول الاقدمون استعمال وسائط عديدة لتسهيل المتاجرة قبل ان يخترعوا النقود بعد طويل الزمان وتوالي الامتحان شأن البشر في داني الملتمس من الامور. واكثر ما كانوا يختارون لذلك ما توفَّر عندهم وجودهُ وجعلوهُ قياساً وقاعدةً في البيع والمبادلة يُنزلونهُ بمنزلة الدراهم في ايامنا. فكان اهل البدو مثلًا يعدّلون قيمة الاشياء نسبةً الى الخروف او البعير والناقة وبقي ذلك زمناً طويلًا. قال المقريزيّ في مقالتهِ عن النقود الاسلاميَّة (ص ١٨): « وكانت الامم في الاسلام وقبلهُ لهم اشياء يتعاملون بها بدل الفلوس كالبيض والكسر من الخبز والورق ولحى الشجر والودع الذي يُستخرج من البحر ويقال لها الكَوذة وغير ذلك ». وكان اهل الحرانة يرجعون الى شيء من الحنطة او غيرها من الحبوب

ثم ان الدول الكبرى نفسها اصطلحت على اصناف من المواد والادوات وترى الشواهد على ذلك لا تُحصى. فانَّ من اعتبر العاديَّات المصريَّة وجد في النقوش والصور التي رُسمت على جدران معابدها ومدافنها اناساً بايديهم اداةٌ كالحذاء او قارورة طيب او قطع من العاج او صدف ثمين. وإنَّ هؤلاء غيرُ مساومين يطوفون الاسواق فاذا عثروا على مطلوبهم سألوا عن ثمنهِ واتَّفقوا مع صاحبهِ وبادلوهُ بما لديهم (١. وكذا ترى في الآثار الاشوريَّة. وهي الطريقة التي شاعت اوَّلًا عند اليونان كما روى هوميروس الشاعر (٢. وكثير من هذه المساومات البسيطة لا تزال جارية الى يومنا في الانحاء التي فيها يعزّ وجود النقود كبعض قبائل البادية وقسم من الحبش وبعض شعوب افريقية وقد شهد على ذلك كثيرون من السيَّاح (٣

١) راجع تاريخ الامم الشرقيَّة القديمة لماسپرو (Maspéro) في المجلد ١ ص ٢٢٣

٢) راجع الالياذ (ك ٧ السطر ٤٧٣ وما يليهِ) والاوديسي (ك ١٦ ش ٤١٥–٤٦٢

٣) راجع كتاب بابلون Babelon : *Les Origines de la Monnaie*, pp. 8 *et* §§

٢) الطور الثاني في تاريخ المسكوكات . وهو اتخاذ المعادن غير المضروبة

غير انَّ البشر وجدوا بكرور الاعصار خللًا كبيرًا في اتخاذ هذه القواعد الاصطلاحيَّة في المساومات لعدم امكان ضبطها . ولمَّا كان الانسان ذا عقل ابدعهُ فيهِ الخالق ليتخطَّى بنورهِ الى كلّ جديد مفيد (وما التمدُّن سوى ثمرة هذا الغرس الكريم وادراك ما لم يخطر في بال السالفين) جعل الاقدمون يبحثون عن طريقة تكون اقرب منالًا في المعاملات . والفينيقيون اجدادنا سبقوا غيرهم من الامم الى هذا الاختراع فانهم لمَّا جالوا في البلاد تاصيها ودانيها واطلعوا على ما فيها من الكنوز المدفونة والمعادن الجهولة طفقوا يشغلون السكَّان باستخراجها ويستبدلونها ببضاعتهم اي بالملابس الفاخرة والمنسوجات والحليّ وآنية الزجاج . وربَّما استعملوا المعادن كالذهب والفضَّة والرصاص والحديد دون سبكها كما يجدونها في معادنها او بحكّ برادتها وانَّما كانوا يتعاملون بالمعادن وزنًا فقط كما هو جارٍ في ايامنا في بلاد الصين اذ لم يضربوا قطّ نقودًا من الذهب والفضة

والذي حملهم على استعمال هذه المعادن وتفضيلها على ما سواها خواصُّها الجوهرية وصلاحيَّتها لمتاجراتهم . ومن هذه الخواصّ انَّ كريمها لا يتغيَّر ولا يفسد ويبقى طويلًا دون ان تنقص قيمتها ثمَّ انها لا تتحطَّم ويسهل نقلها ولا يُقتضى لحفظها كبير عناء . ومنها ما يصلح للزراعة والزينة والعُدد الحربيَّة . ولذلك شاع استعمالها وبطلت المتاجرات بالمواشي والغلات فتبادلوها وتناقلوها تارةً مسحوقة كالذرور وتارةً بهيئة السبائك او على شكل آلات كالقسيّ والمُدى والحليّ والاساور . وقد اختصر القزويني اوصاف الذهب في المتاجرات فقال : « الذهب لا يبلى في التراب ولا يصدأ على طول الزمان وهو ليّن اصفر برَّاق ثقيل رزين . . فهو اشرف نعمة الله على عبادهِ اذ بهِ قوام امور الدنيا ونظام احوال الخلق لاضطرارهم اليهِ في حاجاتهم . فانَّ كلّ انسان محتاج الى اعيان كثيرة من مطعمهِ وملبسهِ ومسكنهِ وسائر حاجاتهِ ولعلَّهُ يملك ما يستغني عنهُ كمن يملك الثياب وهو محتاج الى البُرّ ولعلّ صاحب البرّ لا يحتاج الى الثياب فلا بُدَّ من متوسّط يرغب فيهِ كلُّ احد فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير متوسّطين بين الاشياء حتى يُبذلا

١) راجع مجاني الادب ٣ : ٢٦٦

في مقابلة كلّ شيء ويُبذل في مقابلتهما كلّ شيء وهما كالقاضيين بين جميع الناس يقضيان حوائج كلّ من لقيهما »

وجرى قدماء المصريين على طريقة الفينيقيين فانهم استعملوا المعادن دون ان يضربوها ومن هذه المعادن ما وجدهُ الفراعنة في بلادهم كالذهب فانّ مناجمهُ كانت في بلاد الحبش الخاضعة لهم ومنها ما كان يُدفع للفراعنة كجزية فانّ سوريّة مثلاً كانت تقدّم كجزية للفراعنة الذهب والفضة (١ . وكانوا يتعاملون بهذه المعادن وزناً . الّا انهم بعد حين تعثّروا آثار الفينيقيين فجعلوا المعادن قطعاً صغيرةً بثقل معلوم فقامت مقام النقُود الصغيرة التي نعرفها اليوم باسم القراطة (٢ . ومثلهم الاشوريون

وقد شاع عند سائر الامم الناطقة باللغات الساميّة اطلاق لفظة שָׁקַל بمعنى وَزَن ودفع المال . وكان العبرانيون ايضاً يعطون بالوزن ثمن ما يشترونهُ كما يشهد بذلك الكتاب في اماكن عديدة (٣ . وقد عثرنا غير مرّة في كتب العرب بلفظة وزن المال . بل لفظة الدرهم والدراهم لا تزال تؤخذ عياراً ونكرة للنقود والمال . وقد سمّى اليهود כִּכָּר (كِكّار) اي حلقة المثقال الذي عُرف عند اليونان والرومان باسم talentum

٣ الطور الثالث . وهو تاريخ النقود المضروبة

وجرى الاقدمون على هذا المنوال قروناً عديدة حتى الامم المتمدّنة منهم كاليونان والفرس الى ان وُجدت السكّة . وكان ذلك كما يأتي : وهو انّ بعض تجار اليونان وضعوا قطعاً معدنيّة ثابتة الوزن وطبعوا عليها اشكال هندسيّة وعلامات شتى فكان لكلّ منهم علامة وهي كالامضاء الذي يوقّعهُ معاصرونا على الاوراق التجاريّة . واقدم ما حُفظ منها واعتمد عليه اهل التاريخ سبائك صغيرة الحجم ضُربت بالمطارق عليها اشكال مختلفة وليس عليها صورة (٤

واقدم ما ضُرب من المسكوكات التي لا يُنكر عليها هذا الاسم وُجدت في بلاد

(١ راجع Lepsius : *Les Métaux dans les inscript. égyptiennes*, p. 16

(٢ Lepsius : *Denkmäler*, t. III, 10 a, 39 a, etc.

(٣ اطلب سفر التكوين ٢٣ : ١٦ عدد ٧ : ١٢-٢٥ خروج ٢١ : ٢٢ احبار ٢٧ : ٢ الخ

(٤ بابلون *Les Orig. de la Monnaie*, p. 107

آسيَّة الصغرى ترى على قفاها علامةً كما سبق وعلى الوجه صورةٌ نُقشت على السكَّة باعتناء كلي . وكان ظهورها في بحر المائة السابعة قبل المسيح (١ ومن ذلك الحين جرت العادة ان يُطبع على النقود صورةٌ ما بدلًا من العلامات التي صار استعمالها سابقًا . وهذه الصورة على الاكثر صورة بعض الحيوانات او الرموز وتختلف من مدينة الى اخرى

واوَّل ما تُرىً عليهِ شيء من التاريخ دراهم وُجدت في مدينة هاليكرنس وهي مدينة في آسيَّة الصغرى من اعمال كاريا (Carie) القديمة وعليها صورة أَيلٍ يُحنِ رأسهُ نحو الارض ليرعى وتلوهُ هذه الكتابة اليونانيَّة واحرفها مرسومة من اليمين الى الشمال (AMHΣ IME ΣONNAΦ) ἀμης ἐμὶ σῆμα Φάνος اي : اني علامة فانس . والايل رمز لمدينة افسس حُفر على سكَّتها اكرامًا لالهة المقام ارطميس (ويسمِّيها اللاتينيون ديانا وهي إلهة الصيد) . واذ لم يتولَّ على هذه المدينة احد باسم فانس قال العلامة بابلون وكثيرون من علماء العاديَّات (٢ ان فانس هذا من كبار التجَّار الذين استثمروا معادن البلاد وكنوزها في تلك الايام

ولم يضع احد من الملوك اسمهُ على السكَّة قبل القرن الخامس ق م . واستمرَّ التجَّار وذوو الاموال يضربون السكَّة باسمهم الى ان قلَّت ثقة الناس بهم فخلفهم الملوك في ذلك وجعلوا السكة من القاب الدولة والسلطان . ومع ذلك ما برح التجَّار يضربون علامتهم على نقُود الملوك لدفع الريب واتقاء الغشّ

وقد ظهرت السكة في بلادنا السوريَّة على عهد ملوك الفرس قبل قدوم الاسكندر الكبير واليونان اليها . ثم بعد موت الاسكندر وانقسام المملكة ضُربت السكة لخلفائهِ في كلّ المدن السوريَّة . وطرأ عليها ما ليس بوسعنا ان نبحث عنهُ في هذا المكان . وفي ما سبق كفاية لتعريف مبادئ النقود والله اعلم .

---

١) اخطأت مجلة الضياء بقولها في عدد ١٥ نوفمبر ١٨٩٩ ص ١٣٩ : «واقدم سكَّة وجدت في الماديات لا تتعدى الى ما وراء القرن السادس ق م »

٢) في تأليفهِ المذكور ص ١١٨-١١٩